مكتبة البنين
قسم الدوريات

# حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

غير مصرح بأعارته من المكتبة

العدد الخامس

١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

# الثبات والتغير في عادات القطريين

الدكتور
فاروق محمد العاوي
أستاذ بقسم الاجتماع

تحاول هذه الدراسة أساساً الوقوف على مظاهر الثبات والتغير في العادات الاجتماعية Customs المرتبطة بدورة الحياة Life Cycle لأهل قطر . ولتحقيق هذا الهدف تمّ القيام بدراسة ميدانية مركزة ، واختيرت « الخور » في الشمال كي تجرى فيها دراسة انثروبولوجية مكثفة من أجل الوقوف على مظاهر الثبات والتغير بالنسبة للعادات الاجتماعية المرتبطة بثلاث مراحل هامة من دورة حياة الفرد وهي : الميلاد – الزواج – الموت .

وفيما يلي عرض تحليلي لخطوات هذه الدراسة :

**( أولاً ) أهداف الدراسة ومنهجها :**

تصف الدراسة الحالية وتحلّل الملامح الاجتماعية الأساسية المميزة لدورة الحياة في قبيلة المهاندة بالخور ، شمال مدينة الدوحة عاصمة دولة قطر . وهذه القبيلة من القبائل الأصيلة الخاصة بقطر ، ولذلك تعكس عاداتها الاجتماعية الأساليب الجمعية الشعبية التي ظلت حصينة ضدّ التغير السريع ( بالمقارنة بمدينة الدوحة(١) مثلاً ) . هذا إلى بعدها النسبي عن العاصمة التي يوجد بها عدد كبير من المهاجرين ، وتتأثر بثقافات فرعية Sub-Cultures متعدّدة باعتبارها ملتقى ثقافات ومعبر تجارات ومركز لقاءات واستراحات . ولذلك فإن الأساليب الشعبية Folkways السائدة في العاصمة لن تأتي في نقاوتها كما هي ، بل من الطبيعي أن تتأثر بعوامل ومتغيرات داخلية وخارجية متعدّدة . ولعلّ من أهم تلك التغيرات التي تشهدها مدينة الدوحة في السنوات العشر الأخيرة ارتفاع نسبة معدل الهجرة وتركز

معظم المهاجرين بها ، وارتفاع مستوى معيشة سكانها خصوصاً بعد اكتشاف البترول وتسويقه عالمياً ، بالإضافة إلى النهضة التعليمية التي تشهدها في السنوات الأخيرة وتركز معظم دور التعليم بمختلف مستوياتها في المدينة بما فيها جامعة قطر بكلياتها الخمس (٢) التي فتحت أبوابها للبنين والبنات على السواء . وقد دعت هذه التغيرات المتلاحقة إحدى الباحثات القطريات المرموقات كي تخصِّص رسالتها لدرجة الدكتوراه من أجل دراسة « ديناميات التحديث في المجتمع القطري (٣) » . ومن الطبيعي أن تنعكس هذه التغيرات وغيرها لتمارس تأثيرها على العادات الاجتماعية (٤) . وإن كان من المعروف أن المجتمعات النامية عموماً ، والتي بدأت تأخذ بأسباب التحضر والتحديث يتعايش فيها القديم والحديث معاً .

والدراسة التي نحن بصددها دراسة اثنوجرافية في المقام الأول . ومن المعروف أن الإثنوجرافيا Ethnography تعني أساساً بعمليات الوصف العلمي المنظم لثقافات الشعوب البسيطة بصفة خاصة . وقد تمَّ تسجيل المادة الثقافية في هذه الدراسة – والتي تمَّ جمعها من الميدان – مسترشدين في ذلك بتعريف هوبل Hocbel للإثنوجرافيا بأنها هي « ذلك القسم من علم الأنثروبولوجيا الذي يختص بالتسجيل الوصفي للثقافات »(٥) ، ويعرِّف قاموس وينيك Winick الإثنوجرافيا بأنها « دراسة الثقافات المختلفة . . . دراسة وصفية غير تفسيرية في المقام الأول » (٦) .

ومن المعتاد في الوقت الحاضر الإشارة إلى الدراسة الوصفية لطريقة معيشة شعب ما بأنها اثنوجرافية . وحيث أن الدراسات الوصفية هي تحليلية كذلك ، فإننا نجد أن مفهوم Ethnographic Monograph ( أي الدراسة الحقلية الوصفية المفردة ) لاسيما في بريطانيا أصبح يستعمل بمعنى واسع للدراسات المفصلة التي يقوم بها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية حول طريقة معيشة شعب معين . ومع أن هناك اتفاقاً على أن الإثنوجرافيا تهتم أساساً بالدراسات الوصفية ، وأن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بالتحليل البنائي ، إلا أننا نجد تداخلاً في الطرق والأدوات في كثير من الدراسات(٧) .

ولا شك أن مثل هذه الدراسات لها أهميتها من الناحيتين النظرية والتطبيقية بالنسبة للمجتمع القطري . فمن الناحية النظرية تفيد هذه الدراسات في التعرف على العادات السائدة ، والتأثيرات التي تحدثها عمليات التغير في جوانب الثقافة اللامادية ( المعنوية ) ، خاصة وأنه لم

تجري في هذا الصدد إلا دراسات قليلة للغاية تناولت جوانب محدَّدة تتعلق ببعض العادات السائدة في المجتمع القطري عولجت من منظور الأغنية الشعبية أو الفـــن الشعبي(٨) . أما من الناحية التطبيقية ، فالأمل يحدونا في أن نتائج مثل تلك الدراسات والبحوث يمكن أن تفيد منها الهيئات والمؤسسات الحكومية والأهلية من أجل ترشيد العادات الاجتماعية ومظاهر السلوك العام في المجتمع ، وبحيث يمكن أن تقوم تلك المؤسسات بعملية توعية شاملة تدعو إلى تغيير العادات التي يمكن أن تكون ذات تأثير معوِّق على خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والتمسك بالعادات التي تساعد على تحقيق التنمية والتقـــدم وتعميق وتدعيم أركانها ، لاسيما وأن تلك العادات الاجتماعية تمثل قوة مجتمعية – كمـــا يقول عالم الاجتماع سمنر Sumner لا يمكن أن يستهان بها . ولاشك أن أخطر ما يهز بناء المجتمع هو أن يعاد تنظيمه ، بينما تظل روابطه تعكس قيماً معوقة للتنمية والتقدم مثل قيم الفردية والأنانية والانعزالية والرجعية .

ولعل من أبرز المعوقات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع القطري في الوقت الحاضر ، بعد تلك النقلة البترولية التي قلبت حياته الاقتصادية والاجتماعية رأساً على عقب ، لاسيما ابتداءً من سبعينات هذا القرن حيث تزايد الدخل القومي من البترول تزايداً واضحاً أخذ يزداد عاماً بعد آخر ، وانعكست ثمار تلك الزيادة في تحسين مستويات الحياة المادية في جوانبها المختلفة . . . نقول لعلَّ من أبرز تلك المعوقات أنماط السلوك الاجتماعي التي ظلت جامدة ، في الوقت الذي يجب فيه أن تتغير أو على الأقل أن تكون عالية المرونة لمقابلة مطالب الإصلاح. ويرجع ذلك إلى بقـــاء بعض الرواسب التقليدية Traditional Survivals ذات السيطرة على محصلة العرف وموجهات العلاقات الاجتماعية ، إلى جانب عـــدم بلوغ التغير في المجتمع جوهر القيم والمعايير (٩) .

إن العلم الاجتماعي سواءً أكان انثروبولوجيا أو سوسيولوجيا ، هو أقدر العلوم الإنسانية التي تكشف لنا عن تلك المعوقات والمشكلات . ويرى الكاتب أن علم الاجتماع يمكن أن يحقق نجاحاً كبيراً في الكشف عن تلك المعـــوقات خصوصاً إذا تبنى المنهج الأنثروبولوجي في الدراسة لأنه الأقرب إلى طبيعة المجتمعات النامية وظروفها . والمنهـــج الأنثروبولوجي منهج كلي تكاملي بالضرورة Holistic method يحتفظ بالنظـــرة الكليـــة للحياة الاجتماعية . وهذا يعني أن « كل ما هو واقع في المجتمع يعتبر مرتبطاً بالآخر ارتباطاً

عضوياً ، وكل محاولة للتفتيت تعطينا زوايا غير منسجمة للحقيقة الاجتماعية . والإنسان الفرد الذي يعتبر الوحدة الإنسانية التي تحيا داخل مجتمع معيَّن ، هو أيضاً متعدد الجوانب . وكل محاولة لتفتيت الإنسان الفرد إلى أجزاء لا تفضي إلى أي معرفة حقيقية ، فالمجتمع كل والإنسان كل ، وهذا هو الذي فرض على المعرفة أن تكون كلية أيضاً . وبالتالي لا يستقيم فهمنا لعمل الثقافة إلا إذا فهمناها من الزاوية الكلية ، لأن ثقافة الإنسان لا يمكن أن تنقسم إلى مادي وغير مادي لأنهما يتبادلان التأثير والارتباط » (١٠) .

أما عن منهج الدراسة فقد قام الباحث منذ البداية بجمع كافة البيانات والمعلومات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية عن منطقة الخور حيث تعيش قبيلة المهاندة ( حوالي ٨٠ ٪ من سكان القبيلة )(١١) ولذلك يطلق عليهم مهاندة الخور ، وذلك قبل النزول إلى الميدان . ورغم ضآلة تلك البيانات ، إلا أنها ساعدته كثيراً على استيعاب ما لقيه من ظواهر ووقائع من ناحية ، وعلى الملاحظة الجيدة من ناحية أُخرى . كما قام بزيارتين استطلاعيتين إلى منطقة البحث من أجل الاحتكاك العملي المباشر مع المنطقة وأهلها ، ومن أجل الحصول على الخبرة اللازمة والضرورية للتعامل مع الناس ومع المادة التي سيجمعها ، وإخطار الناس بمهمته والغرض منها . وقد كان هذا داعياً – فيما بعد – لسهولة تقبله له بينهم وتقديم العون له ، ولاسيما وقد توفرَّ له عدد من طلبته كمرشدين من أهل المنطقة نفسها ، الذين كانوا له حامين وراعين وأخذوا بيده إلى المنطقة ، وقدموه إلى أقاربهم وأصدقائهم ، وعرفوه بأكبر الناس سناً . وقد ظلت زيارات الكاتب إلى المنطقة قائمة منذ ديسمبر ١٩٧٩ وحتى مايو ١٩٨١ .

وتمت الاستعانة بعدد من الإخباريين(١٢) Informants معظمهم من كبار السن فوق الستين عاماً ، حيث كانت لديهمالقدرة على أن يصفوا للكاتب بدقة الوضع الذي كانت عليه العادات الاجتماعية في الماضي ( منذ ثلاثين عاماً ) أي قبل اكتشاف البترول ، وذلك فيما يتعلق بثلاث مراحل هامة من دورة الحياة وهي : مرحلة الميلاد ، والزواج ، والوفاة . كما قام الكاتب بنفسه بحضور بعض حفلات الميلاد واحتفالات الزواج ومراسيم وطقوس الوفاة ، وتسجيل وجمع كل العادات الاجتماعية الحالية المتعلقة بتلك المراحل حتى يمكن الوقوف على مظاهر التغير التي تكون قد طرأت عليها في الوقت الحاضر عنها في المجتمع القطري التقليدي قبل اكتشاف البترول .

وكان الكاتب حريصاً على أن يستقي من أخباريه المحليين الدائمين Regular local Informants وأيضاً من الإخباريين العرضيين Irregular informants دلالة ومعنى كل لفظ ومصطلح أو تعبير يجده غريباً عليه ، حتى يستطيع أن يعرف كيف يفكر مثلما يفكرون . ولا شك أنه حين يتعلم المرء لغة الأهالي Natives ولهجتهم فإنه يتعلم في نفس الوقت ثقافتهم ونسقهم الاجتماعي اللذين يتبلوران في مصطلحات اللغة المستخدمة وألفاظها . فالعلاقات الاجتماعية والعقائد والعمليات الفنية بل وكل شيء في حياة الأهالي الاجتماعية يُعَبرَّ عنه إما في شكل ألفاظ أو في شكل أفعال . وقد أفاد الكاتب من كل هذا في جمع مادة اجتماعية غنية خاصة بالأمثال الشعبية المتداولة(١٣) والتي تلعب دوراً هاماً في عملية الضبط الاجتماعي . كما أفاده ذلك أيضاً في اختبار دقة مرشديه أو اخباريه ، حيث كان يعيِّن أمامهم – دون أن ينبههم – بعض الكلمات أو التعبيرات مع تعمده أن يذكرها بطريقة خاطئة حتى يرى ما إذا كان الإخباري منتبهاً فيصححها له ، أم أن الأمور تتساوى في نظره .

كما وضع الكاتبْ الملاحظة التي أوردها إدوارد وسترمارك Edward Westermarck على لسان مونتني Montaigne في كتابه المنهج في الأنثروبولوجيا الاجتماعية موضع التطبيق العملي . يقول مونتني وهو من الذين درسوا عادات البدائيين الأمريكيين : « لقد كان الرجل الذي معي بسيطاً أُميًّا ، ولذا فقد كان من أنسب الناس لتقديم شواهد حقيقية ، لأن المجادلين وإن كانوا يلاحظون بمهارة ويلتقطون كثيراً من الأشياء ، إلا أنهم يصقلونها ويغلفونها تبعاً لوجهة النظر التي يرون بها الأشياء . لذا فنحن نحتاج لرجل صادق تماماً أو من البساطة بحيث لا تكون عنده ملكة التركيب »(١٤) .

ومن جهة أُخرى تمت مراعاة طبيعة الأبعاد الزمنية والاجتماعية والمكانية لموضوع الدراسة . وبالنسبة للبعد الزمني تم تتبع التغير الذي طرأ على الظاهرة موضوع البحث ، بمعنى معرفة ما كان يحدث في الزمان الماضي وما يحدث حالياً مع التأكيد على تحديد تاريخ ظهور الصور الجديدة . وروعي فيما يختص بالبعد الاجتماعي الاختلافات الراجعة بصفة خاصة إلى السن والجنس والمهنة والطبقة الاجتماعية . أما بالنسبة للبعد المكاني ، فلا يخفى أنه من بين ما يتطلبه هذا البعد مراعاة تلك الاختلافات بين الوحدات المكانية داخل المنطقة موضع البحث والدراسة .

والدراسة الإثنوجرافية الراهنة تم إجراؤها كما سبق القول على قبيلة المهاندة بالخور ، شمال مدينة الدوحة عاصمة دولة قطر . والدراسة في مجموعها وصفية تستهدف أساساً تقرير خصائص ظاهرة ثقافية معنية ، وهي العادات الاجتماعية المتعلقة بدورة الحياة ، وذلك بجمع الحقائق وتفسيرها لاستخلاص دلالاتها . وترتكز أساساً على منهج البحث الأنثروبولوجي في دراسة عادات دورة الحياة بما يستلزمه هذا المنهج من وصف علمي للظواهر موضع السؤال أو البحث . ويستند هذا الوصف على عدد من الأدوات المتكاملة التي تمثل جماع الخبرات الأنثروبولوجية والفلكلورية على امتداد تاريخ العلم مثل الملاحظة ( وبالدرجة الأولى الملاحظة غير المشاركة ) Non participant observation حيث لم تمكنا الظروف من الإقامة بمنطقة البحث على مدىً زمني طويل كما تستوجبه الملاحظة بالمشاركة التي تتطلب المشاركة الفعلية في كل أوجه الحياة الاجتماعية ، والمقابلة الشخصيةَ ، والاعتماد على الإخباريين أو المرشدين ، ورسم الخرائط الجغرافية والبيانية الاجتماعية والتسجيل الصوتي . هذا علاوة على الصور الفوتوغرافية العادية والملونة التي تم التقاطها والتي تفي بمتطلبات التسجيل الأنثروبولوجي السليم .

وتمَّ إتباع وسيلة علمية مقننة في الجمع عن طريق جدول البحث الاستقصائي Schedule أو الاستبيان الاستخباري Outstionnaire . وصمَّم الكاتب في هذا الصدد استمارة للبحث ، مستأنساً في تصميمها بالإطار الثقافي التخطيطي أو ما يسمىَّ باسم Cultural Outline Scheme الذي أعده الأنثروبولوجيون المتخصصون في الدراسات الحقلية لدراسة الجماعات البسيطة مثل المجموعة الاستخبارية التي أعدها فوكارت Foucart ومارين Marin وهي نماذج من المجموعات العامة الشاملة للأسئلة المتعلقة بمختلف النظم التي يمكن أن يتجه إليها الباحث الأنثروبولوجي . كما استعان الكاتب أيضاً بالدليل الذي وضع لجميع العناصر الثقافية المتعلقة بعادات دورة الحياة في الثقافة المصرية (١٥) ، وعلى وجه الخصوص عادات الميلاد والزواج والوفاة بعد أن تم حذف الأسئلة وتعديل بعضها بما يتلاءم مع ثقافة المجتمع القطري .

وقد نوهنا في السابق بأن الدراسة التي قمنا بها وصفية أساساً اعتمدت على ملاحظة السمات الثقافية والظواهر والنظم بصورة مباشرة في ضوء الدراسة المونوجرافية ( المفردة ) لمهاندة

الحور والاعتماد على الإخباريين الأميين كبار السن أساساً ، هذا إلى تطبيق استمارة البحث عن طريق المقابلة الشخصية والاحتكاك المباشر بالأهالي . وهذه الإجراءات المنهجية تدخل كلها في مجال الوصف المباشر ، في حين أن الدراسة اعتمدت أيضاً على طريقة الوصف غير المباشر حيث تم الرجوع إلى مصادر أُخرى لمعرفة ما كانت عليه صورة العادات الاجتماعية والطرق الشعبية في الماضي ، كما اعتمدنا على بعض مشاهدات وملاحظات الغير من الباحثين والمسافرين . وهناك أيضاً الروايات المتوارثة والأحاديث المتناقلة والأساطير المتواترة Legends, Myths والقصص الشعبي والحكم والأمثال والأشعار والأغاني السائدة التي تتناقلها الأجيال شفاهة . كلها وما إليها تعتبر روافد خصبة ومصادر غنية تعكس العادات الاجتماعية والطرق الشعبية لدورة الحياة ، وهي كلها تدخل في مجال الوصف غير المباشر . ويتضح من هذا أن منهج الوصف ذو شقين وأن جانباً واحداً من هذا الوصف ، ونعني الوصف المباشر عن طريق الملاحظة والمقابلة الشخصية لا يكفي لتسجيل حقائق كاملة عن الموضوع . لذلك نرى أن علماء الإثنوجرافيا يذكرون أن الطريقة المثلى هي جمع المادة عن ثقافة ما أو منطقة معينة بالملاحظة المباشرة وغير المباشرة وأن تكونا متكاملة . ذلك أن الباحث في تتبع العادات الاجتماعية قد يميل إلى ذكر العادات المتبعة في دفن الميت مثلاً وطريقة تذكره أو وداعه ، وقد لا يموت أحد مثلاً حين يكون الباحث في الميدان ، فهنا لا تجدي الملاحظة المباشرة ، ويلجأ الباحث إلى الملاحظة غير المباشرة أي ملاحظة ظواهر أُخرى مرتبطة بها أو القيام بزيارة المدافن وملاحظة عدة أشياء جزئية ثم السؤال والاستقصاء الذي يعتمد على الذاكرة أكثر مما يعتمد على العين المجرَّدة ، ذلك لأن الذي يتحرَّى الدقة بعينيه فقط لن يقدِّم إلا صورة ناقصة للحياة الاجتماعية (١٦) .

وأخيراً نشير إلى أن محاولة الوُقوف على مظاهر الثبات والتغير في العادات الاجتماعية لدورة الحياة ، يعكس أهمية استخدام المقارنة التاريخية لمعرفة الوضع الذي كانت عليه تلك العادات في الماضي أو في المجتمع القطري التقليدي والمجتمع الحديث . وتفترض الدراسة الحالية في استخدامها للمقارنة التاريخية نقطة معينة يفترض أنه قد حدث عندها التغير ، وهي ما يطلق عليه نقطة الصفر (Zero point) . وهذه النقطة هي اكتشاف البترول منذ حوالي ثلاثين عاماً ثم تداوله تجارياً وتسويقه دولياً وعلى نطاق واسع وضخم بعد ذلك . وقد

نتج عن هذا الوضع تغير إجتماعي وتأثيرات شاملة انعكست في بناء المجتمع القطري وفي نظمه المختلفة(١٧) ، وإن تفاوتت قوة تلك التأثيرات بطبيعة الحال من منطقة ثقافية إلى أُخرى . ومعنى هذا أن المنهج التاريخي يمكن أن يصف لنا الظاهرة الاجتماعية وتحوّلها أو ما يطرأ عليها من تغير من نقطة ابتداء معينة إلى نقطة إنتهاء محددة ، وذلك من أجل الوقوف على ما حدث للظاهرة الاجتماعية موضع التساؤل من تغير . ويستتبع هذا عدم الحاجة إلى تفسير الظاهرة الاجتماعية بالالتجاء إلى التاريخ الظني أو التأويل السيكلوجي لهـا .

**( ثانياً ) الثبـات والتغير في عادات دورة الحيـاة : رؤية شاملة**

عاش أفراد المجتمع القطري فترة طويلة من حياتهم في ظل نظم وأوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية تقليدية ثابتة نسبياً ، وانعكست هذه النظم والأوضاع على قيم وعادات المجتمع . وقد جاء اكتشاف البترول منذ حوالي ثلاثين عاماً ثم استغلاله وتسويقه خارجياً ليعرِّض بناء المجتمع القطري بفضل عمليات التنمية والتحديث التي تجرى في كافة قطاعات ومجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وانعكس أثر ذلك بدرجات متفاوتة في كافة أنحاء المجتمع القطري .

ومجتمعات الخليج العربي التي تشكلت قبل اكتشاف البترول ، بما فيها المجتمع القطري ، هي مجتمعات قبلية أساساً(١٨) . ولعلّ السبب في ذلك هو أن كل هذه الإمارات تتغذى على احتياطي بشري واحد هو قبائل شبه الجزيرة العربية(١٩) . وهذا النمط من المجتمعات البدوية القبلية ذو تنظيم اجتماعي ونشاط اقتصادي وبناء للسلطة يختلف كل الاختلاف عن تلك التنظيمات الاجتماعية والنشاطات الاقتصادية وأبنية السلطة بين الجماعات التي تسكن المناطق الريفية أو الحضرية الصناعية .

والمجتمع البدوي القبلي تحكمه قيم ونظم وأنماط سلوكية معروفة ومحدّدة . فهو مجتمع يقوم على نوع من العلاقات والروابط الاجتماعية التي تدور حول الدم أو العرق أو ما يسمىّ « العلائق والصلات الدموية » أو « العصبيّة » أو « النسق القرابي » أحياناً أُخرى ، والعلاقات القائمة على أساس هذا النسق من السمات الرئيسية البارزة للمجتمع البدوي . ويكاد يكون هذا النظام هو النسق المشترك في البداوة العربية كلها . ومن خلال هذا احتفظ البدوي بوحدته

الثقافية والحضارية . ولعل هذا هو السبب في أن ولاء البدوي لا ينصرف إلى المكان ، وإنما يتجه إلى الزمان . ومن هنا جاء تمسكه بالعادات والتقاليد والأنساب . والرابطة الأساسية التي تربط أفراد المجتمع هي الرابطة الدموية . كما أن العصبية جزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعي البدوي بفضل ما تتميز به من قوة حلقية واجتماعية قادرة على حماية كيانه القبلي .

من هنا كان البدوي شديد الانصياع لمعايير جماعته ، ويتدعّم هذا الاتجاه عن طريق التطبيع الاجتماعي الذي يشجع التمركز حول العائلة أو القبيلة ، بمعنى أن البدوي ليس له كيان بعيداً عن عشيرته أو قبيلته أي عصبيته . هذه العصبية هي التي تنظم سلوك الأفراد ، وتعمل على التضامن والانسجام وتلبي مطالب البدوي كلها ، وهي التي تحكم البناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية . كما يترتب عليها التزامات وأدوار اجتماعية يقوم بها الأفراد والجماعات لتدعيم هذا النسق . وتتجلى العصبيّة في مظاهر اجتماعية متعدّدة كعصبية الأقارب وذوي الأرحام ، وعصبية التضامن والتحالف القبلي ، وعصبية الولاء ، وعصبية الجوار ، وعصبية العادات والتقاليد . . . الخ .

كل هذه القيم والنظم والأوضاع تترك بصماتها واضحة جلية على ملامح المجتمع البدوي وثقافته ، وتتأثر عاداته وتتشكل وفقاً لها . فمثلاً تؤثر العصبية في المجتمع القطري عموماً في نظام الزواج وعاداته . فالزواج يقوم على أساس الرابطة الدموية أو العصبية ، وهو ما يعرف بالزواج الانضوائي أي الزواج من الداخل Endogamy بين الأقارب وبني العمومة على زعم أن هذا يؤدّي إلى تقوية الوحدة المورفولوجية للقبيلة أو العشيرة . وهذا يفسّر مغالاة بعض القبائل والعشائر في حرصها على نقاوة عصبيتها فلا يمكن مثلاً للقبيلة الأصيلة أن تزوج بناتها للقبائل غير الأصيلة .

والعائلة هي نواة المجتمع ، فهي المسئولة عن تنشئة الأطفال وتلقينهم القيم والمعايير التي يعتز بها المجتمع القبلي ، وهي تُعِدُّ الفرد الإعداد الاجتماعي السليم لمواجهة الحياة . والأب هو المحرك لكل المناشط الاقتصادية والاجتماعية داخل عائلته ، فهو يتبوأ مكانه رفيعة ، في حين أن مكانة المرأة ضعيفة ، لا رأي لها في زواج أو خلافه ، ولا يحق لها التصرف في أموال العائلة المنقولة وغير المنقولة ، أو التصرف في زواج الإبن أو البنت . وواجب النساء بصفة عامة هي طاعة الرجل وطاعة أوامر الزوج ووجوب تنفيذ جميع ما يطلبه .

كل هذه عادات اجتماعية تمثل لُب الثقافة وجوهرها ، وهي قوانين التعامل الاجتماعي بين أفراد المجتمع التقليدي خصوصاً في المجتمعات التي لا تشكل دولة بالمعنى المتعارف عليه سياسيّاً ، وهي من صنع المجتمع وخلقه ، وليست من صنع الفرد ، وهي تكشف بجلاء عن شخصية المجتمع .

وقد حملت ثورة النفط معها أسباب التغير الاجتماعي والثقافي ، وهو أوضح ما يكون في جوانب الثقافة المادية ، حيث يمكن مشاهدة ذلك بسهولة في مظاهر العمران المختلفة : في المباني وفي اقتناء أحدث سلع الاستهلاك والترف على اختلاف أنواعها ، وظهور أنشطة اقتصادية جديدة لم تكن موجودة في المجتمع التقليدي ، واختفاء أنشطة تقليدية أُخرى مثل الغوص على اللؤلؤ ، والتجارة بمفهومها القديم . وقد أخذت التجارة الآن وضعاً جديداً في المجتمع القطري عامة يستند على أُسس مغايرة وتنظيمات مختلفة عن تلك التي قامت عليها قديماً . هذا إلى زيادة عدد المؤسّسات الاقتصادية وتدفق الهجرات التي يحتاجها سوق العمل والإنشاءات الحديثة التي فرضتها حتمية التطوُّر إلى مجتمع حديث . كما ظهرت في سوق العمل الحاجة إلى التخصص وتقسيم العمل بالمعنى الفني الدقيق ، كما أنشئت كثير من البنوك والمؤسّسات المالية . كل هذا استتبع تغيرات في السلطة السياسية والقضائية ارتبط بعملية تحديث الدولة ، إذ لم يعد العرف كافياً لتسوية المنازعات في المجتمع الحديث . كما كان على الوحدات القبلية والعرفية الانتظام في علاقات جديدة في النسق السياسي الحديث الذي يقوم على نظم الإدارة المحلية والتنظيمات الإدارية بالشرطة والقضاء ، مما أدّى إلى انهيار بعض العلاقات السياسية التي تربط بين تلك الوحدات القبلية والعرفية ، فلم تعد الوحدات التي تمثل المرتبة الدنيا والتي تخضع لحماية الوحدات القبلية التي تمثل مرتبة أعلى في نسق الترتيب والتفاضل الاجتماعي القبلي التقليدي ، في حاجة إلى مثل تلك الحمـــاية .

كما أن طبيعة المشروعات الاقتصادية الحديثة التي ظهرت بعد اكتشاف النفط أدت إلى ظهور نظام جديد للتأمين يختلف تمام الاختلاف عن نظام التأمين الاجتماعي والاقتصادي التقليدي الذي كانت تمارسه العائلة والقبيلة ، مما أدّى إلى تقلص وتلاشي الحاجة شيئاً فشيئاً إلى التمركز الإقليمي للوحدات القبلية والعرفية ، وظهور الصورة الحديثة للأُسرة الزواجية أو الصغـــيرة Conjugal or Nuclear Family بعـــد أن كانت العـــائلـــة الممتـــدة

Extended family هي نمـــط التنظيم العـــائلي السائد . وقد كان لهذا أثره النسبي في بداية تحرر أفراد الأ ُسرة من السلطة بين أجيال الآ باء والأجداد ، وتحرُّر الفرد من تلك الوصاية التي تتحكم فيه وفي سلوكه وحريته في اتخاذ القرار ، وكان هذا أوضح ظهوراً في الحضر أو في العاصمة الدوحة تحت تأثير التعليم والاختلاط بالأجانب (٢٠) .

وقد بدأ المجتمع القطري بصفة عامة يتقبل فكرة تعليم الفتاة ، واكتساب الفتى والفتاة لقيم جديدة مثل خروج المرأة للعمل خصوصاً في معن معينة مثل التدريس والتمريض والعمل الإداري والفني في الوزارات ، واستخدام وسائل المواصلات الحديثة ، والعمل الحر . ولم تعد التنشئة الاجتماعية تنشئة صارمة أو متسلِّطة يمارس فيها الأب الدور الرئيسي باعتباره رمـــز السلطة المطلقـــة (Authoritarian figure) بحيث يقـــوم بتحديد أنمـــاط الســـلوك المرغوبة وغير المرغوبة للأفراد في نطاق الأ ُسرة أو المجتمع ، ويفرض هذه الأنماط على الأبناء ، وأصبحت عملية التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية أكثر مرونة ، وابتدأ يظهر ما يمكن أن يسمَّى بصراع الأجيال أو صراع بين القديم والجديد . وتغيرت النظرة إلى إلى المرأة إلى حدٍّ ما ــ حيث لم تعد فحسب أداة للاستمتاع في علاقة الزواج ، وذلك تحت تأثير التعليم الذي أعطاها ومازال سيعطيها دفعة أثر دفعة ستساعد على كسر كثير من القيود والأغلال الاجتماعية التي تحد من مشار كتِها كعضو منتج فعَّال في الهيئة الاجتماعية باعتبارها تشكل نصف أفراد المجتمع .

هذه الرؤية الشاملة ــ في نظر الكاتب ــ تعدُّ ضرورية وهامة لفهم مظاهر ( التغير النسبي ) في عادات دورة الحياة ، تلك العادات التي لا تنفصل عن بناء المجتمع الكلي . وهناك عادات ثابتة ، وأُخرى تغيرت تماماً ، وثالثة ابتدأت تصيبها رياح التغيير . من هنا يمكن القول بأن المجتمع القطري ، مثل غيره من المجتمعات العربية بصفة خاصة والنامية بصفة عامة ، مجتمع يتعايش فيه القديم والجديد جنباً إلى جنبب ، بمعنى أن كثيراً من النظم الاجتماعية وأنماط السلوك والقيم البدوية التقليدية ، مازالت تتعايش حتى اليوم في وجدان أفراد المجتمع وفي أنماط سلوكهم الفعلي جنباً إلى جنب مع التصوُّرات والقيم الجديدة والأنماط المستحدثة . وهي ظاهرة مشتركة على أية حال تتقاسمها البلاد العربية سواءً في آسيا أو أفريقيا بدرجات متفاوته بطبيعة الحـــال (٢١) .

ومجتمع قبيلة المهاندة بالخور مجتمع يعكس أصالة الماضي وتراثه التليد . من هنا كان حرص الكاتب على دراسته ، حيث تمثل قبيلة المهاندة إحدى القبائل القطرية الأصيلة . وما دمنا بصدد تحديد مظاهر الثبات والتغير في عادات دورة الحياة ، فسنقوم بعرض الخطوط العريضة (٢٢) لذلك موضحين في إيجاز صورة الممارسات التقليدية للعادات الاجتماعية لدورة الحياة جنباً إلى جنب مع ما حدث أو طرأ من تغير وذلك بالنسبة كما ذكرنا آنفا لعادات الميلاد والزواج والموت .

ولكن باديء ذي بدء يمكن أن نقرر أن العادات الاجتماعية المتعلقة بالموت لم تتعرض للتغير ، إلا في عناصر فرعية قليلة وسمات ثقافية جِدٌّ محدودة . والسبب في ذلك يعود بطبيعة الحال إلى ارتباط هذه العادات في أغلب الأحوال بتعاليم الدين الإسلامي . ومعنى هذا أن العادات المرتبطة بالنظام الديني لم تتأثر إلى حَدٍّ بعيد بالتغير البنائي الذي شمل النظام الاقتصادي والسياسي والتربوي ، حيث اعترت تلك النظم تغيرات واضحة . وإن تعرضت مرحلة ما قبل الموت ( الشيخوخة ) للتعديل لاسيما ما طرأ على المكانة الاجتماعية Social Status للشيخ أو كبير السن على النحو الذي سنذكره فيما بعد .

**( ثالثاً ) الثبـــات والتغير في عـــادات الميـــلاد :**

( ١ ) يؤدِّي عقم المرأة إلى الطلاق سواءً في المجتمع التقليدي القديم أو الحديث . وإن كان الإنجاب قديماً كان يؤدي وظيفة أكثر أهمية حيث أنه يقوي العصبية . وكانت المرأة في القديم تلجأ لعلاج عن طريق الوصفات الشعبية أو السحرية ، وساعد على ذلك أن التعليم بالنسبة للمرأة القطرية قديماً كان معدوماً . أما الآن فإن المرأة بجانب استخدامها للوصفات الشعبية في بعض الأحيان ، فإنها تستعين بمشورة الأطباء المختصين وتذهب للعلاج بمستشفى النساء بالدوحة . وهذا العلاج قد يشمل في الوقت الحاضر الزوجة والزوج أيضاً بناءً على رأي الطبيب المعالج . وبهذا فقد أخذ المجتمع يتقبل أن الرجل أيضاً قد يكون سبب العقم ، بعد أن كانت المرأة توصم قديماً بأنها سبب العقم وتتحمل النتيجة بمفردها .

( ٢ ) تراجع المرأة الأطباء الآن خصوصاً في الشهور الأخيرة للحمل ، وتتم الولادة الآن بمستشفى النساء بالدوحة . وكان الوضع قديماً أن تلد المرأة بالمنزل على يد القابلة .

( ٣ ) تعد خلفـــة الذكور من الأُمور ذات القيمة الاجتماعية العالية في مجتمع المهاندة قديمه وحديثة على حدٍّ سواء ، لأن الذكر يحمل اسم أبيه ، وإن كان للذكور قيمة اجتماعية عالية جداً في المجتمع القديم بسبب مهنة الصيد والغوص على اللؤلؤ التي امتهنتها الآباء والأجداد ، وهي مهنة شاقة قاصرة تماماً على الذكور . أما الآن ونتيجة لانتشار التعليم ، فإن الفتاة المتعلمة تستطيع الالتحاق بسلك الوظائف الحكومية وتكسَّب من عملها مثل الذكر . ومع ذلك فمازال للذكر قيمة اجتماعية عالية ، والمرأة التي تنجب الإناث فحسب معرَّضة ليتزوج عليها زوجها ، وهي تتقبل ذلك خوفاً من الطلاق ، وفي غالب الأحيان تخطب لزوجها بنفسها واحدة من معارفها أو صديقاتها .

( ٤ ) يدرَّب الطفل على القدرات المختلفة كالجلوس والوقوف والمشي بنفس الأسلوب قديماً وحديثاً ، إلا أنه من الملاحظ الآن الاستعانة بالخدم من الهنود والباكستانيين بصفة خاصة من أجل المساعدة في تربية الطفل مما خفَّف بعض العبء عن كاهل الأم . كذلك يلاحظ استخدام بعض وسائل الثقافة المادية الحديثة لمساعدة الطفل على الوقوف والمشي . وكان الطفل ينام قديماً في طبق من الخوص يوضع له في نفس حجرة الأبوين ، أما الآن فينام على سرير عصري خاص به في حجرة الأبوين ، أو في حجرة خاصة مع ترك الباب بدون إغلاق حتى تسمع الأُم صوت وليدها عند البكاء .

( ٥ ) تساعد التنشئة الاجتماعية في المجتمع القديم والحديث على تحديد الفروق الفسيولوجية بين الأُنثى والذكر ، وذلك عن طريق تقسيم العمل بينهما ، كما تبرز طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة في المستقبل . فالبنت تدرَّب منذ طفولتها على أعمال البيت ، كما تدرَّب على أن تكون مطيعة ورقيقة في معاملاتها مع الآخرين ، لإعدادها لأداء دورها كزوجة وربة بيت في المستقبل . بينما لا يدرَّب الذكر على الأعمال المنزلية لأن هذه الأعمال في رأي الأهالي في المجتمع القديم والحديث من أخص وظائف البنت التي تعد لدور رئيسي واحد في الحياة وهو الزواج . وإن كان بعض الأزواج قد ذكروا للكاتب أنهم لا يجدون غضاضة في مساعدة زوجاتهم في أعمال المنزل ولكن في حالة واحدة فقط وهي المرض الشديد الذي يمنع الزوجة من الحركة والعمل في المنزل ، وفي حالة عدم وجود من يساعد في تلك الأعمال من الأقارب أو الخـــدم .

( ٦ ) لا تختلف عادات التسنين في المجتمع القديم عن الحديث . بينما بالنسبة لعادة الختان فقد اقتصرت الآن تماماً على الذكور ، في حين أنه قد سُجِّلت بعض الممارسات القليلة والتي كانت تجرى في السر حينما يذهب الرجال للغوص على اللؤلؤ بالنسبة للبنات في المجتمع القديم . وقد أصبح في الإمكان إتمام عملية الختان بالنسبة للذكور في المستشفيات على أيدي الأطباء ، وإن كان ذلك ليس شائعاً حتى الآن ، حيث يفضل الكثيرون ختان الأولاد على يد بعض المختنين المحترفين في القبيلة ، على أن يعقب الختان احتفال يتجمّع فيه الأقارب لتناول العشاء والغناء على صوت الدفوف الأغاني الخاصة بهذه المناسبة (٢٣) .

( ٧ ) عندما يبلغ الذكر فإن والده كان يرغب في تزويجه على الفور في المجتمع التقليدي ( مجتمع الغوص أي مجتمع ما قبل اكتشاف البترول ) . وفي فترة ما قبل البلوغ يخرج الولد مع رفاقه في حرية دون أي قيد . أما بالنسبة للبنت فتمنع من اللعب في الشارع عندما تبلغ العاشرة تقريباً ، كما تمنع من مخالطة الصبيان . أما في المجتمع الحديث فقد تأخر نسبياً سن الزواج نتيجة لانتشار التعليم بالنسبة للولد ، وبالنسبة للبنت فإن الجميع مازال يفضل تزويجها في سن مبكرة كما كان يحدث من قبل ، وهناك بنات متزوجات في المدارس ، ونسبة مرتفعة من البنات المتزوجات في الجامعة .

( ٨ ) بالنسبة لألعاب وأغاني الأطفال فقد قلت الآن عما كانت عليه سابقاً ، نظراً لانتشار المدارس والتعليم النظامي بصفة عامة ، مما يهدِّد كثيراً منها بالاندثار في المجتمع الحديث .

**( رابعاً ) الثبات والتغير في عادات الزواج :**

( ١ ) كان الزواج في المجتمع التقليدي يتم داخل إطار العائلة الممتدة ، فابن العم على حد قول أحد الإخباريين : « كان يملك بنت عمه مثلما يملك الريال في جيبه » ، بمعنى أنه أحق إنسان بها ، وبالتالي يستطيع أن ( يحيرها ) أي يمنعها من الزواج من غيره ويتركها دون زواج إذا شاء . وكان الزواج في الماضي يتم دون مشورة الفتاة ورغم إرادتها وتفاجأ به في أغلب الأحيان . كذلك تفاجأ بشخصية العريس ولا تعرفه لأن هذا كان يُعَدُّ عيباً إلا بعد وضعها في « زولية » أي سجادة وحملها لحجرة العريس . حينئذ تراه لأول مرة وتأخذ في

البكاء والعويل . ووالد الفتاه كان صاحب الأمر والنهي في أمر زواجها ، وإليه يعزى الفضل في تسهيل الزواج إذا أتاه من يرضى بأخلاقه ولو كان من ذوي الحالة المادية البسيطة . كما كانت المهور في الماضي غير مغالى فيها ، لأن الرجل كان يوزن كما يقول المهاندة بأخلاقه ومروءته وعمله قبل كل شيء . وكانت المهور في السابق تتراوح بين أبناء القبيلة بين خمسين إلى مائة روبية غير الملابس ، والذهب كان قليلاً ورخيصاً إذ كان يكفي دبلة أو عقد رخيص . وعلى كل كانت قيمة المهر تحدَّد وفقاً لاسم العائلة وسمعتها ، ثم درجة قرابة العريس لعروسه ، فإذا كان ابن عمها أو ابن خالها لا يهم هنا المال ، فما يدفعه يوافق عليه الأب على الفور خصوصاً ابن العم .

أما في الوقت الحاضر فمازال الأهل يشتركون في اتخاذ قرار الزواج ولكن دون التحكم الصارم الذي كان يمارسه الأب بالنسبة لرغبات الأبناء ، وإن كان هذا التحكم لم يعد سارياً بالنسبة للأبناء ، إلا أنه مازال ملحوظاً ولكن بدرجة أخف كثيراً عن الماضي بالنسبة للبنات ، لأن الأب يعتبر البنت شرفه وعرضه في المقام الأول . ومازال الزواج من ابن العم هو الصورة المفضلة والمثلى في نظر الأهالي وهو أحق شخص ببنت عمه (٢٤) . يليه الزواج من بقية الأقارب ثم من داخل قبيلة المهاندة ثم بدرجة أقل كثيراً من قبائل أُخرى في قطر في نفس المستوى الاجتماعي . أما الزواج الخارجي أو الاغتترابي Exogamy = Out Marriage فيحاربه الأهالي هنا بشدَّة ، ونعني به الزواج من خارج القبائل القطرية ولو من نفس المنطقة أي منطقة الخليج العربي . وقد دفعت ظاهرة غلاء المهور في المجتمع الحديث بعض الشباب إلى الزواج من غير القطريات رغم معارضة الأهالي الشديدة ، وإن كانت ظاهرة الزواج من غير القطريات أكثر وضوحاً في مجتمع الدوحة بطبيعة الحال بسبب طبيعة المجتمع الحضري وارتفاع مستوى التعليم فيه بالقياس بالمجتمعات المحلية الأُخرى وتوفُّر قدر أكبر من الحرية ومستويات التعليم لأفراده .

( ٢ ) تُعَدُّ ظاهرة غلاء المهور بصفة عامة من الخصائص المميزة للزواج في المجتمع الحديث : مجتمع الثروة والبترول . وليس من قبيل المبالغة القول بأن غلاء المهور يعدُّ المشكلة الرئيسية في الزواج ليس في قبيلة المهاندة فحسب ، بل في المجتمع القطري بأكمله . وقد دفعت هذه الظاهرة بعض الشباب إلى الزواج من غير القطريات رغم المعارضة الشديدة من

جانب الأهالي . وقد استشرت هذه الظاهرة في كل أنحاء المجتمع القطري بدرجات متفاوتة ، مما دفع الحكومة القطرية مؤخراً إلى منع دخول غير القطرية المتزوجة بقطري إلى البلاد للحدّ من هذه الظاهرة ، لاسيما بعد أن انهالت الرسائل على المسئولين والصحف والمجلات تناشد الجميع إتخاذ الوسائل الكفيلة بالقضاء على هذه الظاهرة .

وبالنسبة لرأي الشباب في ظاهرة غلاء المهور ، فكما قيل للكاتب أنه ما كان يمكن لشاب أن يتزوج من غير قطرية إلا لأنه طرق باب القطريات ولم يستطع أن يدفع تكاليف الزواج أي المهر ولوازم العروس والعرس والتي تبلغ حوالي مائة ألف ريال وقد يكون أكثر بكثير من هذا في حالة العائلات الميسورة ، في حين أن المهر في الماضي كان لا يزيد مطلقاً على مائة ريال . وهذا يرجع في نظر الشباب إلى بدعة الزواج الحديث وإلى المغالاة والتفاخر بين العائلات ، والتسابق على تقديم الغالي والثمين سواءً كان شبكة أو دزة أو قوائم ذهب أو خرج مطبخ أو ملابس أو ذبائح تذبح ونقود نقدية تقدّم كمهر . . . الخ . هذا في حين أن عباءة الإنسان كانت تصلح في الماضي كمهر ، لأن المهم هو سمعة الشاب المقبل على الزواج وصدقه وشهامته قبل غناه . وقد لخص أحد الإخباريين من كبار السن المشكلة في في جملة واحدة للمقارنة بين ما كان يحدث في الماضي وما يحدث الآن فيما يتعلق بظاهرة غلاء المهور بقوله : « إن فتاة اليوم مهرها كبير جداً وعطاؤها قليل ، في حين أن فتاة الأمس كان عطاؤها كبير جداً ومهرها قليل » . وقال إخباري آخر : « اليوم ثمن الفتاة كمهر غالي جداً ومكلف للغاية بعكس أُمها أو جدتها ، ولكن السعادة التي وفرتها أُمها لابنتها لن تتكرّر أبداً ، ففتاة اليوم تحاول أن تكون ــ كما يقال ــ متمدينة وهي ليست كذلك أبداً ، إذ تحولت إلى ما يشبه الغراب الذي يحاول تقليد الحمامة ، فلا هي مشيت مشيتها ، ولا قلّدت الحمامة » .

( ٣ ) بالنسبة للتصرف في المهر ، ففي المجتمع القديم أو الحديث يتوقف هذا الأمر على عقلية الأب ومدى تمسكه بالعادات . فبعض الآباء يأخذون المهر كله لأنفسهم ويعتبرونه حقا لهم ، لأن الأب ربيَّ ابنته وصانها . والبعض الآخر يقسمونه إلى قسمين يأخذون نصفه ويعطون البنت النصف الآخر ، وبعضهم يعطونه كله للبنت ويزيدون عليه ، وبعضهم يدخلونه في تجارة باسمها .

( ٤ ) إن دخول الفتاة في مجال التعليم في الوقت الحاضر جعلها تعارض الزواج في سن

صغيرة « اعتباراً من ١٥ سنة » ولكن الشباب عامة مازال يشترطو يفضل أن تكون الفتاة صغيرة السن وأقل ثقافة وتعليماً ، حتى الشباب الجامعي المثقف يميل إلى مثل هذه النظرة وهذا الاتجاه . وهذه هي إحدى المشكلات التي تواجه الزواج بين فتيات اليوم ، بالإضافة إلى مغالاة الأهل في المهور في الوقت الحاضر ، مما دفع بعض الشباب إلى الزواج من فتيات غير قطريات . وتقول إحدى الإخباريات المثقفات : « يتزوج الشاب من غير القطرية التي يتعرف عليها ويفضلها عن ابنة عمه التي لم يرها منذ كانت طفلة ، ورغم أنها قريبته إلا أن العادات تفصلهما وتجعلهما كالغرباء . وإذا أضفنا إلى ذلك مشكلة أُخرى وهي القبيلة ، نجد أن الأفكار القبلية يجب أن تزال من فكر الفتاة القطرية ، ويتاح لهـــا الاختيار الحقيقي في الزواج ، بدلاً من الزواج القائم على الحظ » .

كما تفضل الفتاة المثقفة بالذات في الوقت الحاضر أن يكون زوج المستقبل مستقلاً أي لا يعيش مع أهله ، وألا يكون فارق السن كبيراً . ولكن يجب التأكيد من ناحية أُخرى أن هناك فرق بين الاتجاهات والرغبات والأمـــاني التي تبديها الفتاة المثقفة ، وبين ما يحدث فعلاً أي ما يفرضه الأهل وما يحتمه المجتمع والواقع(٢٥) .

( ٥ ) لم تكن توجد ليلة للحناء في المجتمع التقليدي ، إذ كانت العروس لا تخضَّب بالحناء لأن عاداتهم كانت لا تقر ذلك ، وذلك حتى لا يقال أن العروس فرحة بالزواج وتريده ، فالمفروض أنها كانت لا تعرف من تتزوج أو متى تتزوج ؟ أما الآن في المجتمع الحديث فيفضَّل إحياء ليلة الحناء للعروس حيث تقوم بتخضيبها الآن سيدة متخصصة تسمى « الخضابة » تقوم بالنقش على يدي ورجلي العروس بالحناء بنقوش جميلة على شكل زهور وأشكال أُخرى جميلة . وتوزع في هذه الليلة المأكولات والمشروبات وبعضهم يستدعون الآن الطبالات من نساء الحي والقبيلة ليقمن بالغناء والضرب على الدفوف . ولا تتزين العروس كثيراً في هذه الليلة ، وذلك حتى تظهر بكامل أُبهتها ليلة الزفاف . وتفضل كثير من الفتيات في الوقت الحاضر ارتداء فستان أخضر في ليلة الحناء وذلك تفاؤلاً بهذا اللون .

( ٦ ) يمكن للأُخت الصغرى الآن أن تتزوج قبل الأُخت الكبرى ، في حين أنه في الماضي كان هناك غضاضة شديدة في ذلك ، ولو أن ذلك غير مستحب حتى الآن ولكنه يحدث . كما أن العروس لا ترتدي الآن « البطولة » كما كان يحدث في السابق ، إذ بمجرد

خطبة الفتاة في الماضي فإنها تلزم بارتداء البطولة وتمنع تماماً من الخروج من البيت حتى لا يراها الناس . كما كانت العروس في أثناء احتفالات الزواج في السابق لا يظهر وجهها بسبب ارتدائها للبطولة ، أما الآن فالعروس أثناء احتفالات الزواج لا ترتدي البطولة أو العباءة ، ويظهر وجهها للجميع .

( ٧ ) العادة السائدة في المجتمع القديم هي أن يقوم العريس بإعداد جهاز غرفة العرس على نفقته الخاصة دون أن يشاركه أهل الزوجة في ذلك . ويرسل هذا الجهاز إلى منزل أهل العروس حتى يتم الزفاف والدخلة ، وبعد ذلك ينقل الجهاز إلى منزل أهل المعرس ( أي العريس ) في ليلة التحوال حيث ينتقل الزوج والزوجة إلى منزلهما المستقل عن عائلة الزوج في الوقت الحاضر . ومازالت هذه إحدى العادات الثابتة في مجتمع المهاندة حتى الآن ، فالعريس هو الذي يتحملّ كل تكاليف الجهاز ولا تشاركه العروس في شيء من هذا . وكل ما يمكن ملاحظته من تغير هو مكونات الجهاز نفسه ، حيث أصبحت محتويات الجهاز مختلفة وبعضها على النمط الأوروبي وذلك نظراً لتغير الثقافة المادية في المجتمع .

( ٨ ) تستخدم في الوقت الحاضر الحقائب الكبيرة الزاهية والمصنوعة في الخارج لتوضع فيها دزة العروس ، وتشحن في السيارات مع خرج المطبخ إلى منزل العروس . كما تستخدم العروس في الوقت الحاضر أنواع المكياج والعطور الحديثة في تزيين نفسها ، وهو ما لم يكن معروفاً في السابق . ويهتم أيضاً في الوقت الحاضر بتنظيف العروس وإدخالها الحمّام قبل العرس ، في حين أنها في الماضي كانت تزف لعريسها بملابسها المتسخة التي عليها وثيابها القديمة .

( ٩ ) بالنسبة لاحتفالات الزفاف فهي عادة اجتماعية خاصة بالوقت الحاضر ، إذ لم يكن يقام في الماضي أي احتفال بمناسبة الزفاف . وتوجّه الآن الدعوات لحضور هذه الاحتفالات ، ولم يكن متعارفاً من قبل على توجيه مثل هذه الدعوات بالنسبة لأي احتفالات تتم في الحي أو القبيلة . فقد كان أبناء الحي من القبيلة يحضرون أي احتفال دون أن توجه لهم أية دعوة . وقد تكون الدعوات شفوية توجهها أُم العروس لنساء الحي والأقارب ويوجهها والد العروس إلى الرجال ، كما قد تكون دعوة كتابية كما هو متعارف عليه حديثاً وذلك

على هيئة كروت زفاف . وقد أصبحت هناك مغالاة في عدد الذبائح التي تذبح في حفل الزفاف من أجل التفاخر والمباهاة لاسيما بين العائلات القوية وأفخاذ القبيلة الميسورة الحال . كما تستخدم في الاحتفالات أيضاً التورتات الفاخرة وأدوات تناول الطعام من شوك وسكاكين وملاعق ، وهو ما لم يكن متعارفاً عليه في الماضي ، إذ كان يفضل دائماً استخدام الأيدي .

**( خامساً ) الثبـــات والتغير في العادات المرتبطة بالشيخوخة والموت :**

( ١ ) تغيرت مكانة كبير السن أو الشيخ الذي كان في الماضي كبيراً للعائلة الممتدة أو المركبة ، حيث اهتزت هذه المكانة كثيراً وتزعزت في المجتمع الحديث عنه في المجتمع التقليدي قبل اكتشاف البترول . فقد كان كبير السن في المجتمع التقليدي هو الآمر الناهي الذي يخطط لأعضاء العائلة حياتهم وأدوارهم في الحياة ، ويفض المنازعات بين أهل بيته وكذلك بين أعضاء قبيلته أو بين قبيلته وغيرها من القبائل الأُخرى المتنازعة معها . ومع ابتداء تقلص نمط التنظيم الاجتماعي المرتكز على أساس العائلة الممتدة أو المركبة ، انحسرت وظائف كبير العائلة وانزوى وحيداً في منزل ابنه في انتظار الموت ، وأحياناً يلاعب أحفاده ويساهم في تربيتهم وتنشئتهم ويلقنهم الحكمة والشعر ، ولكنهم انشغلوا عنه في الوقت الحاضر نتيجة لانتشار التعليم . وبذلك اهتزت مكانة كبير السن عما كانت عليه في الماضي بفعل رياح التغيير الاجتماعي منذ اكتشاف البترول ، على الرغم من أنه مازال يحظي في المجتمع الحديث بقدر كبير من الاحترام بحكم سنه وحكمته وخبرته ، إلا أنه يعاني حالياً من الفراغ ومن الإحساس بالوحشة وبأنه عالة على أولاده وكناتهم ( زوجاتهم ) ، وبذلك لم تعد الحياة بالنسبة لكبار السن من الجنسين هانئة كما كانت في الماضي ، ولم تعد للحياة مرحها السابق رغم انتعاش اقتصاديات الأهالي .

( ٢ ) مع انتشار التغير في وسائل الثقافة المادية في المجتمع الحديث قبل أجهزة الإذاعة والتليفزيون والصحف ، فقد إتجه البعض إلى الإعلان عن خبر الوفاة من خلال وسائل الإعلام وأجهزة الاتصال تلك ، في حين أن خبر الوفاة في المجتمع التقليدي كان يتم نقله مشافهة من بيت إلى بيت .

( ٣ ) تتولىّ سيارة الإسعاف في بعض الأحيان في الوقت الحاضر نقل المتوفي بعد تغسيله في بيته حتى تسجيته في القبر . ويقوم بعملية غسل الموتى حالياً مختصين ومختصات من

البلدية ، وتتكفّل الدولة حالياً بتحمل تكاليف تجهيز جثة المتوفيّ ، في حين أن أهل الميت في المجتمع التقليدي كانوا يقومون بتحمل تكاليف جثة المتوفيّ ، أو يتولىّ بعض المحسنين من أبناء القبيلة دفع هذه التكاليف إذا لم يكن أهل الميت قادرين على ذلك .

( ٤ ) رغم تيسُّر سبل العيش الآن وارتفاع مستوى المعيشة ، فلم يطرأ أيُّ تغيير يذكر على تجهيز الميت بشراء الأقمشة الفاخرة لتكفينه بها كما يحدث بين بعض المسلمين في مجتمعات أُخرى . ومازالت حتى الآن أقمشة الكفن تتميز بالبساطة وكما حدّد الشرع . وبذلك لا يعكس الكفن المستوى المادّي للمتوفي من حيث الثراء أو الفقر أو مكانة العائلة ، وكذلك لا يوجد تمايز على الإطلاق بين الأغنياء والفقراء في شكل المقابر العام .

( ٥ ) لا يزيد الحداد على الميِّت سواءً كان رجلاً أو أمرأة على ثلاثة أيام طبقاً لأحكام الدين الحنيف . أما في حالة ما إذا كان زوج المرأة فعليها أن تحد عليه شرعياً أربعة أشهر وعشر وهذا هو المتبعّ بدقة سواءً في المجتمع التقليدي أو المجتمع الحديث وطبقاً لتعاليم الدين الإسلامي .

( ٦ ) من الملاحظ أن أفراد أُسرة الميت يتقبلُّون في المجتمع التقليدي أو الحديث على حدٍّ سواء خبر الموت برباطة جأش ، أي دون جزع أو هلع ودون إسراف في الحزن قد يدفعهم إلى لطم الخدود وشق الجيوب والصراخ والعويل والنواح على الميت ، فالجميع يتقبل الموت كحقيقة لابُدّ منها وعلى أنه قضاء الله الذي لابُدّ منه ولا رادّ لقضائه ، يغلفهم الحزن المتزن دون انفعال يخرج الفرد عن وقاره وعن إيمانه بقضاء الله وقدره . وتعود الحياة كما كانت إلى مجاريها بعد مراسم الحزن على الميت التي تستمر ثلاثة أيام فحسب . كما أن زيارة قبور الموتى تتم الآن نادراً ولا تحدث في الأعياد على الإطلاق كما هو الحال في مجتمعات عربية أُخرى لأنها أيام فرح ، ويكون هدف هذه الزيارة العظة والتصدُّق على روح الموتى بقرارة القرآن الكريم والترحم عليهم .

يتضح من العرض السابق لمظاهر الثبات والتغير في عادات دورة الحياة : ( الميـــلاد ، الزواج ، الموت ) أن التغير الاجتماعي في قبيلة المهاندة يتسِّم نسبياً بالبطءُ (٢٦) ، وقد أدّى هذا إلى أن يقتصر التغـــير على السطح دون أن ينفـــذ إلى اللب أو الجوهر ، أي جوهر القيم والمعايـــير وذلك نتيجـــة للرواسب التقليـــدية **Traditional Survivals or Residuals**

التي مازالت تفرض سيطرتها وسطوتها (٢٧) على محصِّلة العرف السائد والعادات الاجتماعية التي توجه العلاقات الاجتماعية وتحكم البناء الاجتماعي .

**( سادساً ) خاتمـــة : الأغاني والأمثال الشعبية كمرآة عاكسة لعادات القطريين :**

آثر الكاتب خلال الفقرات السابقة الالتزام بعرض الدراسة الميدانية التي تمَّ القيام بها في ضوء المنهج العلمي في البحث ، مع إبراز القسمات الرئيسية لمظاهر الثبات والتغير في عادات القطريين فيما يتعلق بثلاثة مراحل هامة من دورة الحياة وهي الميلاد ، والزواج ، والموت . ورغم أن هذا العرض قد يتصِّف بشيء من الجفاف ، إلا أن طبيعة السياق العلمي لنتائج الدراسة تستوجب ذلك . ولكن تجدر الإشارة إلى أن العادات القطرية تعكسها في جلاء ووضوح الأغاني والأمثال الشعبية ، تلك التي يمكن أن تضفي على الدراسة قيمة جمالية لا يمكن إنكارها . إلا أن الكاتب يرجو أن يفرد في المستقبل بحثاً عن « العادات القطرية كما تعكسها الأمثال والأغاني الشعبية » ، على اعتبار أن هذه الأغاني والأمثال الشعبية عبارة عن « تنميط » لسلوك الناس المتكرِّر في شكل عادات إجتماعية ، يمكن أن يستشف منها الخصائص القومية التي تميز شعباً عن شعب آخر . وهي تمثل من ناحية دستوراً غير رسمي للحياة الاجتماعية ، كما تمثل من ناحية ثانية عاملاً أساسياً من عوامل الضبط الاجتماعي Social Control يحكـــم سلوك النـــاس ويوجهـــه في مناشطه الاجتماعية والفكرية والاقتصادية في ضوء خبرات أسلافهم في الماضي البعيد والقريب . وهي من ناحية ثالثة تشكل جزءاً هاماً من مكونات اللاشعور في عقول المعاصرين ( الخلف ) .

وقد قام الكاتب بمحاولة لجمع الكثير من هذه الأغاني والأمثال ، وهو يعكف الآن على تصنيفها وتحليلها راجياً أن يتمكن في القريب من معالجة هذا الموضوع في بحث مستقل نظراً لأهميته ، حيث تعدَّ بحق تلك الأغاني والأمثال الشعبية فلسفة حياة وحكمة أجيال ، تجري على ألسنة الناس في شتى المناسبات لتؤدِّي وظائف مختلفـــة في الواقع العملي ، فهـــي النتاج البكر الذي يتوارثهُ الخلف عن السلف على مرِّ الزمان ، دون أن تعبث به صنوف الأحداث وتقلبات الأيام ، ومن غير أن تشو ب نسيجه الساذج شوائب التأثر بثقافات أُخرى عابرة أو وافدة ومستقرة ، ودون أن يغيرّ من طابعها حسن الحضارة وزخرفها المصطنع (٢٨) .

والأمثال الشعبية وصفات اجتماعية كالوصفات الطبية ، وصفت للمحافظة على كيان المجموعات والجماعات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع الكبير .

ومن الأمثال الشعبية المتداولة في المجتمع القطري عامة (٢٩ ) :

« إذا بغيت تضمها أسأل عن أُمها » .

أي إذا أردت أن تتزوج فيجب أن تسأل أولاً وقبل كل شيء عن أُم العروس .

« من استحى من بنت عمه ما رجى منها غلام » .

أي من يستحي من ابنة عمه فليس في إمكانه أن ينجب منها . ومن المعروف كما سبق القول مراراً أن الزواج من ابنة العم هو الزواج المفضّل في المجتمع القطري بصفة عامة وهو ما يطلق عليه علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية مصطلح « الزواج التفضيلي » . Preferential marriage

« خـــذ الأصيلة ولو على الحصيرة » .

وهذا المثل يحث الشباب على البحث عن الزوجة الأصيلة حتى ولو كانت فقيرة معدمة .

« ما يقدر أبونا إلا على أُمنا » .

ويستشهد الأهالي في تفسيرهم لهذا المثل بقوله تعالى : ( الرجال قوّامون على النساءُ بما فضل الله بعضهم على بعض ) ، لأن المرأة القطرية تحت قوامة الرجل دائماً سواءً كانت زوجة أو أُختاً أو أُماً .

أما بالنسبة للأغاني الشعبية (٣٠) فتعكس مجموعة ضخمة من العادات الاجتماعية . وعلى سبيل المثال فالمجتمع القطري أياً كانت سمته ( قبلي أو حضري ) يرحب بمقدم الأولاد الذكور ويرجو الإكثار منهم . وتبرز بوضوح نظرة المجتمع من خلال هذه الأغنية الشعبية التي تغنيها قريبات المرأة الحامل كأن تكون أُمها أو أُختها أو حماتها ، وذلك قبل عملية الوضع بفترة قليلة من الزمن أي في حدود الشهر التاسع :

هـــوّن عليهـــا
مـــريم حـــويمل
هوّن الله عليهـــا

استـــتر الله عليهـــــا
راحت تتنفس بيت أبوهـــا
بشرت لهـــا بغـــلام تجيبه
يانا* البشر من أبو الوليد
خطـــــوط تســـــيد
وعـــــلوم تمـــــسي
يعـــل* الجـــود يمشيه
يا رب تبـــارك لنـــا فيه

(*) يـــانـــا أي : جـــاءنا

(*) يعل أي : جعل أو عسى

هكذا و كما سبق القول تعدّ الأغاني والأمثال الشعبية تراثاً شعبياً يمتاز بأصالته ، لأنها من صنع الناس أنفسهم ، تعبّر عن حياتهم ، وتعكس أحوالهم ، وتنبع من بيئتهم ، وهي بإيجاز شديد البضاعة المحلية الخالية من كل غريب ومستورد . ولذلك وجب العكوف على دراستها من جانب المتخصصين في العلوم الاجتماعية والفلكورية ، حيث تعكس من ناحية العادات والطرق الشعبية الأصيلة ، كما يمكن اعتمادها دليل عمل نافع في الحيـــاة .

## الملاحظـــات

# قـــائمـــة والمراجـــع

(١) أثبتت دراسة حديثة عن الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطري بين طلبة وطالبات جامعة قطر تغير كثير من المفاهيم التقليدية المتعلقة بالاختيار للزواج بصفة خاصة ، والتي مازالت سائدة بين أفراد قبيلة المهاندة بالخور . انظر : السيد الحسيني وجهينة سلطان العيسى ، الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطري حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، العدد الثالث ، جامعة قطر ، ١٩٨١ ، ص ص ٣٩ – ٦٦ .

(٢) يتبع جامعة قطر خمس كليات وهي كليات التربية ، والإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، والعلوم ، والشريعة ، والهندسة .

(٣) تلك هي الرسالة التي قدمتها الدكتورة جهينة سلطان العيسى تحت إشراف المؤلف ، وقد أجيزت في يونيو ١٩٧٨ ومنحت ( مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بتبادل الرسالة مع الجامعات الأجنبية ) . وقد نشرت الرسالة فيما بعد في الكتاب التالي ، انظر جهينة سلطان العيسى ، التحديث في المجتمع القطري المعاصر ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع والترجمة ، الكويت ، ١٩٧٩ .

(٤) العادات الاجتماعية Customs كما يعرفها بول هورتن Paul Hortton هي أساليب الجماعة العرفية Customary والمعيارية Normative والاعتيادية Habitual . ويذكر عدة أمثلة لهذه العادات الاجتماعية لتبيان ما يقصده منها مثل عادات الطعام وكيفية تناول الجماعة له . وتعدُّ العادات الاجتماعية أو الأساليب الشعبية في نظر سمنر Sumner قوة مجتمعية Societal Force لها أهميتها البالغة ، ذلك أن العملية التي تؤدي إلى تكوين العادات الاجتماعية تنحصر أساساً في التكرار الدائم لبعض الأفعال الصغيرة التي تصدر عن عدد كبير جد آمن أفراد المجتمع في مواقف معينة بالذات ، وهذا يؤدي إلى ظهور العادات الفردية Habits عند الأفراد والعادات الجماعية أو الاجتماعية في الجماعة والمجتمع ككل .

انظر :

Paul B. Hortton & Chester Hunt, Sociology, 2nd. ed., McGraw Hill Book Company, 1968, p. 50.

(٥) انظر :

E. Hoebel, Man in the Primitive World, New York, 1958, p. 1 ff.

(٦) انظر :

C. Winick, Dictionary of Anthropology, New York, 1958.

(٧) ناقش إيفانز بريتشارد مشكلة المفاهيم الخاصة بالإثنوجرافيا والإثنولوجيا في الفصل الأول من كتابه الأنثروبولوجيا الاجتماعية الذي صدرت طبعته الأول عام ١٩٥١ م . كما فعل نفس الشيء راد كليف براون Radcliffe — Brown في الفصل الأول من كتابه « البناء والوظيفة في المجتمع البدائي » عام ١٩٥٢ م .

Structure & Function in Primitive Society.

(٨) لعل أبرز تلك الدراسات ما قام به الأستاذ / محمـــد طالب سلمان الدويك عن الأغنية الشعبية في قطر ، ونشرتها وزارة الإعلام القطرية على نفقتها في أربعة أجزاء عام ١٩٧٥ .

(٩) انظر : محمد عاطف غيث ، المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ١٩٨٠ ، ص ١٠٥ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(١١) يعيش ٨٠ ٪ من سكان قبيلة المهاندة في الخور ، بينما يعيش باقي أفراد القبيلة ( حوالي ٢٠ ٪ ) في قرية الذخيرة التي لا تبعد عن الخور كثيراً وتحدها شمالاً .

(١٢) الإخباري Informant هو « الشخص الذي يمتلك خـــبرة في موضوع ما ، ويلجأ إليه الباحث الأنثروبولوجي كي يمده بهذه الخبرة » . راجع تفصيل هذا التعريف في قاموس الأنثروبولوجيا لوينيك Winick الذي سبقت الإشارة إليه .

(١٣) انظر : فاروق محمد العادلي ، دراسات أنثروبولوجية في المجتمع القطري ، البحث الأول ، دار الكتاب الجامعي — القاهرة ، ١٩٨١ ، ملحق رقم (٢) عن « بعض الأمثال الشعبية الهامة المتداولة في خور المهاندة » .

(١٤) انظر :

Edward Westermarck, Method in Social Anthropology, Huxely Memorial Lecture, London, 1936, p. 248.

(١٥) انظر : محمد الجوهري وآخرون ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة ، ١٩٦٩ ، وبصفة خاصة الأسئلة المتعلقة بالقسم الأول عن دورة الحيـــاة ( الميلاد ، الزواج ، الموت ) ص ٤٩ وما بعدها .

(١٦) انظر : Notes and Queries on Anthropology, London, p. 36.

(١٧) انظر في ذلك بصفة خاصة الدراستين التي قامت بهما الدكتورة جهينة سلطان العيسى وهما :

– الالتقاء الحضاري وأثره في تغير البناء الاجتماعي للأُسرة في قطر ، رسالة قُدمت للحصول على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة – ١٩٧٥ .

– التحـــديث في المجتمع القطري المعاصر ، مرجع سبقت الإشارة إليه .

(١٨) انظر : محمد غانم الرميحي ، الجذور الاجتماعية للديمقراطية في مجتمعات الخليج العربي المعاصرة ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع – الكويت ، ص ٨ .

(١٩) انظر : محمد غانم الرميحي ، معوقات التنمية الاجتماعية والاقتصادية في مجتمعات الخليج العربي المعاصر ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع – ١٩٧٧ ، ص ٣٧ .

(٢٠) انظر الدراسة التي أجراها السيد الحسيني ، جهينة سلطان العيسى بعنوان « الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطري » ، مقال بحولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، العدد الثالث ، جامعة قطر – ١٩٨١ ، ص ص ٣٩ – ٦٤ .

(٢١) انظر : محي الدين صابر ، المقدمة التي كتبها عن علم الاجتماع البدوي ، في مكي جميل عزيز ، البداوة والبدو في البلاد العربية – دراسة لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ووسائل توطينهم ، ١٩٦٣ .

(٢٢) للوقوف على تفصيلات مفيدة انظر : فاروق محمد العادلي ، دراسات أنثروبولوجية

في المجتمع القطري ، مرجع سبقت الإشارة إليه ص ٩١ – ١٧٩ . وكذلك انظر الأجزاء الأربعة من مجلدّ الأُغنية الشعبية في قطر للأُستاذ محمد طالب الدويك ، الذي سبقت الإشارة إليه .

(٢٣) انظر : محمد طالب الدويك ، الأُغنية الشعبية في قطر ، وخاصة الأغاني الخاصة بالختان .

(٢٤) تعدُّ هذه النتيجة على عكس ما توصَّل إليه السيد الحسيني وجهينة سلطان في بحثهما الذي سبقت الإشارة إليه ص ٣٩ وما بعدها . كذلك قارن :

Fouad Khuri, Parallel Cousin Marriage Reconsidered : A Middle Eastern that Nullifies the Effect of Marriage on the Intensity of The Family Relations, Man, Vol. 5, No. 4., December 1970, pp. 597 — 618.

وقد كشفت دراسة فؤاد خوري تلك أن الزواج المفضل Preferential Marriage هو الزواج الذي يتم بين أبناء العمومة من أجـــل تحقيق المحافظة على وحدة العائلة وثروتها .

(٢٥) قارن على سبيل المثال الدراسة التي أجراها كل من السيد الحسيني وجهينة سلطان عن الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطري ، والتي سبقت الإشارة إليها ، ص ص ٣٩–٦٤ . وهذه الاتجاهات التي كشفت عنها الدراسة قد تتحقق وقد لا تتحقق في رأينا ، لأنها تصطدم بعد ذلك بقيود وقيم اجتماعية ومعوقات شديدة الصلابة ، والعبرة بمدى صمود الفتاة المثقفة وبمدى نجاحها في إقناع عائلتها برأيها أو مدى تشبثها بموقفها . . . الخ وهو ما لم تكشف عنه الدراسة ، ويحتاج في نظرنا لبحث مستفيض يأخذ في إعتباره النسق القيمي السائد في المجتمع القطري ، والذي تشكل فيه التنظيمات القبلية ركناً جوهرياً وأساساً هامًّا من أُسسه البنائية .

(٢٦) وهذا على عكس ما يتوقع الكاتب من الدراسات التي ستتم مستقبلاً في مدينة الدوحة ، وأيضاً من واقع ما كشفت عنه بالفعل بعض الدراسات القليلة التي أُجريت عن تغير العادات الاجتماعية في العاصمة ( الدوحة ) التي تموج بالغرباء والمهاجرين ، ويرتفع فيها دخل الفرد ، وتتيسَّر فيها سبل الحياة من كل جانب ، ويتوفر لأفرادها مستويات

أعلى من التعليم والرعاية الصحية والاجتماعية ، ومن الحرية الفردية وتأكيد الذات . وعلى سبيل المثال الدراسة التي تم الاستشهاد بها هنا أكثر من مرة عن الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج ، والتي طبقت على عينتين من الطلبة والطالبات بجامعة قطر ، حيث كشفت عن أن عملية الاختيار للزواج تتميز في الوقت الحاضر بين شباب قطر المثقف بقدر من الليبرالية ، وأن الاتجاه نحو الزواج من الأقارب يقل باستمرار . ويمكن تفسير ذلك في ضوء عوامل متعدِّدة منها التعليم ، الاستقلال الاقتصادي للشباب ، محاولة تأكيد الذات من جانب الشباب المثقف ، نمو المـــدن . . . الخ .

انظر : السيد الحسيني ، وجهينة سلطان ، الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطري ، مرجع سبقت الإشارة إليه ، ص ٣٩ — ٦٤ .

وكذلك انظر : محمد غنيم ، التحضر في المجتمع القطري ، رسالة ماجستير مقدمة إلى معهد العلوم الاجتماعية بجامعة الإسكندرية مارس ١٩٨٢ . وقد تركزت الدراسة الميدانية على مدينة الدوحة .

(٢٧) مازالت الرواسب التقليدية تفرض سيطرتها على محصِّلة العادات الاجتماعية والعرف لاسيمافي المناطق القبلية الأصيلة في المجتمع القطري ، وكأداة من أدوات الضبط الاجتماعي تستند إلى جزاءات هي عبارة عن مظاهر منعدِّدة من الضبط الاجتماعي غير الرسمي . هذا إلى أن هذه العادات مازالت مغروسة في أعماق النفس عند أفراد المجتمع ومقتنعين بأهميتها وأهمية الدور الذي تلعبه في الحياة الاجتماعية . وقد أكدت الدراسة التي قامت بها جهينة سلطان أن النسق القرابي في قطر يقوم على قواعد حدَّدها العرف والدين ، بمعنى أن النسبة تكون فيها للأب مع الاعتراف بالقرابة من ناحية الأُم . وإذا تم الزواج من خارج نطاق العائلة ، فإنه يتجه إلى عائلة متكافئة من حيث النسب والأصل . وغالباً ما يتم الزواج من داخل أبناء العشيرة الواحدة . والملاحظ أن مركز الشخص الاقتصادي يحتل أهمية أقل من أصله القبلي فيما يتعلق بالزواج ، لأن المجتمع القطري يتكوَّن من عدة قبائل متصلة النسب وترجع جميعها إلى الجزيرة العربية .

انظر : جهينة سلطان العيسى ، الالتقاء الحضاري وأثره في تغير البناء الاجتماعي للأُسرة في قطر ، مرجع سبقت الإشارة إليه .

(٢٨) انظر : حسن الساعاتي ، حكمة لبنان ، تحليل اجتماعي لأمثاله ، جامعة بيروت العربية ، بيروت – ١٩٧١ ، ص ١٢ .

(٢٩) للوقوف على تفصيلات عن بعض الأمثال الهامة المتداولة في المجتمع القطري بصفة عامة ، انظر : يوسف عبد الرحمن الخليفي ، التحفة البهية في الآداب والعادات القطرية ، مطابع العهد ، الدوحـــة – ١٩٨٠ .

(٣٠) للوقوف على تفصيلات متعدِّدة عن موضوع الأغاني الشعبية ، راجع الأجزاء الأربعة من مجلَّد الأغنية الشعبية في قطر للأُستاذ محمد طالب الدويك ، الذي سبقت الإشارة إليه .